التلاعب بين الفنون الأدبية من خلال كتاب

د. إبراهيم خليل جريس، مفاخرة أدبية غذائية

(بالانجليزية: Ibrahim Kh. Geries, *Literary and Gastronomical Conceit*, Wiesbaden 2002)

أمامنا رسالة أدبية حققها الدكتور إبراهيم جريس وقدّمها للقرّاء بصورة واضحة وسهلة الفهم، بل بدقة ملحوظة ورؤية ذات أهميّة تجاه آفاق أدبية وحضارية تخصّ الأدب والحياة اليومية في الفترة المملوكية، نعني بذلك نهاية العصور الوسطى.

تحتوي الرسالة على مفاخرة بين "حبّ الرز" و"حبّ الرمان"، أو "الحبّ الرمان" كما يعرّفها مؤلف الرسالة الأصلي المجهول بلغته التي تعكس لنا بعض أسماء الأطعمة حسب المصطلحات الشعبية. إنّ هذه الرسالة مبنية على طريقة المقامة من عدّة جوانب (وقد بيّن مؤخرا من جديد وبشكل واضح الباحث Hämeen-Anttila أن في الفترة المتأخرة ظهرت تحت مصطلح "المقامة" أشكال مختلفة للحوار ابتعدت عن شكل "المقامة" المألوف، وقد كتب بعض الباحثين عن هذا الموضوع قبل سنوات ومن ضمنهم كاتب هذه السطور).

تدور في هذه الرسالة مناظرة بين هذين النوعين من الحبوب حيث يظهران بها وكأنهما ينتميان إلى الجنس البشري ويقدران على الكلام: من الأفضل والأفخر؟ ومن المعلوم أنه بصدد هذه المنافسة حول الفخر اشتُق مصطلح "المفاخرة"، وكأنما كل من حب الرز وحب الرمان شخص من الفلاسفة يناقش زميله ويتدفق حماسًا ضمن مناظرة تخص مبادئ التفكير، أو سياسي يخاصم عدوه.

وبالفعل، فمنذ القرون الوسطى وحتى أيامنا، ثمة ضرب من ضروب الانتاج الأدبي يعتمد على حوار أو جدال من هذا النوع من المنافسة بين مواد مختلفة، بين أواني وأدوات، أو بين أناس مختلفين، ثم تظهر النتيجة بشكل قصيدة أو قطعة نثرية. وهكذا يتسنى للقارئ التمتع

الكرمل – أبحاث في اللغة والأدب، العددان ٢٥–٢٦ (٢٠٠٤–٢٠٠٥)، ص ٢٣٦–٢٤١

بمتابعة النقاش بين هذه الأصناف التي يعرضها المؤلفون أمامنا: الورد والنرجس، السيف والقلم، القنديل والشمعدان، الرجل والمرأة، أو الجواري والغلمان، أو بين قطر من أقطار الأرض وقطر آخر، أو ضاحية من ضواحي مدينة ما وضاحية أخرى. وأحيانًا بين السماء والأرض، النهار والليل، البر والبحر، النيل والبحر المالح (وهو الأسم الذي أُطلق في مصر على البحر الأبيض المتوسط لملوحة مياهه ولكون "النيل" هو الآخر، بحرًا في كلتا اللغتين الدارجة والفصحى في تلك الأزمنة القديمة). وفي فترة متأخرة نسبيًا ثمة مفاخرات "القهوة والشاي"، ومواضيع مشابهة. وحقًا هذه ظاهرة هامة جدًا، تحتوي على مجالات مختلفة، ابتداءً بالجدل والتفكير العلميين والفلسفيين، ونهاية بالصور الشعرية الجميلة الفنية وكذلك الصور التي تستهدف مجرد التسلية.

يقف الدكتور جريس بصورة جيدة على هذا البعد الأدبي، لكن من المهم أن نتناول أيضًا الأبعاد الاجتماعية والحضارية.

من المعروف على سبيل المثال أن المفاخرات بين "السيف والقلم" بالعربية، قد أثّرت على الشعراء الأندلسيين اليهود، فقاموا بتقليدها باللغة العبرية (وفي هذا الصدد كتب الاستاذ ي. ليفين י. לוין مقالاً طويلاً تحت عنوان: "الفارس والقلم"، نذكره إلى جانب أبحاث واغنير Ewald Wagner وڤـــان خيلدير Van Gelder، في مقالتين على الأقل، وغيرهما من باحثي الأدب العربي)، وقد كان لهذا الشكل العربي اللامع والمسلي وزن وقيمة في مجتمع المثقفين اليهود.

إن المشكلة الأساسية في تطور هذه الأشكال تكمن في أنها تميل إلى مضاهاة مجالات عديدة قريبة منها وأشكال تشابهها. ويرى الدكتور جريس أن أساس التطور لهذا الفن الكتابي يكمن في ظهور أنواع المناظرات، منها مقارنات "المحاسن والمساوئ". لكن ثمة رؤية أخرى، ترى ميل الإنسانية عامة، خاصة الحضارات أو الثقافات السامية، لكتابة مفاخرات متنوعة. وقد تبلورت أشكال من هذا الانتاج في الكثير من الأجيال التي سبقت الثقافة العربية، ويعتبر كتاب *Dispute Poems and Dialogues in the Ancient and Medieval Near East*، الذي

نشر عام ١٩٩١، وحرره Reinik و Vanstiphout، مهمًا بصدد المفاخرات في الثقافة السامية، ويحتوي على دراسات هامة حول المفاخرات العربية.

سنرى في الأسطر الآتية أنه ليس هناك تناقض أو تغاير بين النقطتين المرئيتين، وسنقبل حقًا الشرح والتحليل العميق للدكتور جريس ووجهة نظره. ذلك لأننا نرى كيف تتواجد وتنسجم أحيانًا، في بعض الظواهر الأدبية، امكانيات عديدة، الواحدة بجانب الأخرى، وليس من الضرورة أن ننقض أو نرفض إمكانية أننا صوب وجود استمرارية الطابع للمنافسة لدى شتى الثقافات في معيار واسع للغاية.

وثمة ناحية أخرى تتجلى من انجازات د. إبراهيم جريس في هذا المضمار بالذات: أحجية قد تجذب النظر، ومن الصعب أحيانًا ايجاد حل لها، ألا وهي السؤال: كيف تولد الأجناس الأدبية (literary genres; genres littéraires) القريبة من الموضوع الذي نبحثه هنا بالنسبة لظهور أشكال فنّ المناظرات والمفاخرات؟ يبدو أن باحث ومحقق نص "المفاخرة"، قد قدم لنا الكثير في بحثه حول هذا الموضوع. ولقد بحث في الماضي وبمثابرة كتبًا ومقطوعات أدبية كرست للمناظرات والمفاخرات وتناقضات متنوعة مثل "المحاسن والأضداد" (عنوان كتاب منسوب للجاحظ) كقالب "مدح وذم" موجه، كل في دوره، صوب نفس الموضوع، إما كنهج جدالات؛ أو تلمّس واستقصاء بين الناس ذوي المعرفة المقلوبة، أو كتمرين مفيد للتدرب في فن المناقشات، وكجزء هام من استهلاك الفكر المنطقي.

من الجدير ذكره ان مصطلح "منطق" نفسه، اشتقّ من النطق (نطق — ينطق) أي الكلام والتعبير بواسطة الكلمات. ومن المعروف أن مصدر هذا المصطلح يرجع إلى logos لدى اليونانيين القدماء، إما من ناحية مفهوم التعبير واستعمال الكلام والكلمات، أو طريقة التفكير المنتظمة، التي نستخدمها اليوم في مصطلح "منطق"؛ فيبدو لنا وجود حاجة انسانية عميقة لربط تنمية التفكير، والادراك الناضج من خلال الكلمات والحوار والمناقشات الشديدة والحماسية. فمن جهة "يسنّ" النقاش الأذهان والفرضيات اضافة إلى دحضها في بعض الأحيان. ومن جهة أخرى فمن المفروض أن إنسانًا ينظم أو ينمي تفكيره بهدوء بينه وبين نفسه، دون أن يقف أمام

خصم لدود وعنيد، أن يفكر نوعًا ما بجدل شخصي، ابتغاء اختيار التعريفات والفهم.

حري بنا أن نشير إلى دراسات سابقة ساهم بها الدكتور جريس لفهم مجالات معينة في الأدب العربي في القرون الوسطى. ففي هذه الدراسات تناول، بالفعل، بصورة واضحة ومقنعة العلاقة بين أجناس كتابية أدبية، وبين تطور أنواع المناقشات والمحاورات. فالمناقشات كانت تارة جدية وطورًا آخر مسلية، نخص بالذكر تلك التي دارت بين تلاميذ "المعتزلة" شيوخ الأديب الكبير عمرو بن بحر الجاحظ وطلابه، ومحافل شتى من المثقفين الذين كانوا يتمرنون ويتأدبون شفويًا في ميدان "المربد" في البصرة، وفي "مدارس" التفكير والتنقيب والأدب، سواء في العراق أو في غيرها من الأقطار العربية والإسلامية.

من جانب آخر علينا أن نميّز الحد الفاصل بين الأفكار المرتبطة بالتفكير من الأشكال ذات الذوق والقيمة الأدبية، من جهة، والطريقة التي تتكون بها الأشكال من خلال الأفكار من جهة أخرى. من المحتمل أنه لهذا السبب فضل أبو منصور والثعالبي تجاهل الحقيقة بأن البيهقي مؤلف كتاب "المحاسن والمساوئ" سبق وانتج قبله مجموعة من المدح والذم. يتظاهر الثعالبي وكأن مبادرته هي الدافع الذي ساهم في انتاج نوع الكتابة في بابي المدح والذم. ومن المحتمل حقًا أن ما دفعه إلى اعتبار نفسه مبتكرًا لهذا النوع الأدبي إنما هي الطريقة التي يدمج بها دائمًا فقرات وأقوالاً متنوعة ليست إلا اقتباسات من الأدب العربي في شتى المسائل والمقامات وحتى أبيات الشعر، يحولها إلى زخارف نثرية، مثل كتاب "سحر البلاغة". عمليًا، يفتقر إلى أي شيء من ثمار إنتاجه وإبداعه الذاتي إلا نادرًا. ومع ذلك، من المحتمل انه كان مقتنعًا بابداعه في استخدام النصوص في إطار آخر، لأن الاطار الذي انتجه وجمع مادته كان منطقيًا ومتفوقًا لترويد ألفاظ، زخارف وعبارات اصطلاحية (مثل كتاب كامل بخصوص أقوال مرتبطة بالأعداد) للناثر الذي يكتب الرسائل، بشكل عام في خدمة السلطات والخلفاء والأمراء. فمن هذه الناحية، ثمة شكل جديد: جمع بلاغيات بصورة "تحسين وتقبيح" أو "مدح وذم" بأشكال مختلفة. وعلى الأقل، فإن المؤلف الذي يجمع المواد، يحسب أنه انتج شيئًا جديدًا للموظفين ولمؤلفي الرسائل النثرية. وذلك بالرغم من الأشكال المتنوعة في جمع التناقضات، وميزات متناقضة سبقت الثعالبي.

يبدو لي من الواجب الاعتماد على مثال الثعالبي، ابتغاء أن نفهم بشكل عام بأنه ثمة استعمالات متنوعة في التناقضات. إن استخدام حاجات جدلية لا يشبه استخدام حاجات بشكل شعري، وكذلك فإن استخدام السخرية والهزل لا يشبه استخدامًا يستهدف من حيث الجوهر إبراز قدرة انتاج زخارف لهدف فن الوصف مما يرغبه الذوق العربي. ويمكن أن نستنتج اختلاف الدوافع التي تكمن وراء كل نوع من المناظرة، أو ملاحظات وشروح لميزات متناقضة وما شاكل ذلك. والحقيقة لا تؤثر علينا بوجود حوافز كهذه لدى ثقافات سامية أخرى، لأنه يجب أن نشير لذلك من خلال وجهتي نظر:

أ- إذا كانت نقطة انطلاقنا أن نتناول ميزة مشتركة تظهر بشكل موازٍ، أو تظهر كعامل مؤثر في الأدب العربي أيضًا، يُطلب آنذاك رف داخلي لميزة كهذه، لا محال، أعني مبنى للنمو والتطور في الأدب العربي، بغية ان تستوعَب بواسطة هذه الميزة.

ب- إذا كانت نقطة انطلاقنا هي أن التطور هو تطور داخلي، فمن الواضح أنه يتم وفق ميزات الروح الإنسانية بشكل أعمّ وأكثر شمولية. ويمكن أن تستوعب تأثيرات (على سبيل المثال عبر اللغة الآرامية-السريانية)، أو أن تتطور بالموازاة معها. وذلك بالرغم من أنه يصعب اليوم التمييز بين ما ساهمت به الظروف العامة وبين ما ساهم به التطور الداخلي. وقد كرس الدكتور جريس عدة سنوات لوصف تطور "المناظرات" داخل الأدب العربي، بدقة وصدق. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضًا تفسير وتحليل النص اللذين قام بهما د. جريس، وهذا ليس مهمة سهلة، وقد أنجزها بنجاح فائق.

لا شك أن هدف نشر الرسالة يخص أيضًا مجال الحضارة والحياة اليومية، مثل الطعام والمطبخ في القرون الوسطى؛ الملح ومرحلة تبييض الرز بواسطته؛ تطور أنواع السلاح: استخدام مادة متفجرة (مادة البارود) مما يستخدم بأشكال متنوعة للهجوم، تفجير أسوار خلال الهجوم، وخصوصًا بالمدفاع وما يشابه ذلك؛ ويثير ذلك اهتمام الباحثين الذين يهتمون في أواخر الفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية، وبشكل عام يخص ذلك مسير التأريخ العالمي. لدينا أيضًا مؤلفات فقهية بصدد استخدام "البارود" من الجانب الشرعي، أغلبيتها لم تنشر،

لكنها ترجع لفترة متأخرة جدًا، وهي تشهد بأن الشريعة ورجال الدين يهتمون تقريبًا في كل تطور حياة. لقد استخدم الدكتور جريس مصادر كثيرة وغنية في المجالين الأدبي والكتابة التاريخية، وكتابات أخرى التي تشير إلى المجال الحضاري.

لكن، إذا أردت أن ألخص أهمية الكتاب فأقول:

أولاً: بالنسبة للناحية الفكرية-الأدبية والحياة الثقافية بواسطة قالب "محاسن ومساوئ"، أي "مؤيد ومعارض"، "ايجابي وسلبي"، "فضائل ومثالب"، فإن الدكتور جريس قد أضاف أسسًا متينة لتقوية هذا البناء.

ثانيًا: ندرج الجانب الجمالي، أعني بناية صورة فيها شيء من الدراماتيكية (هناك أشكال تدعى بشكل عام في المصطلح "مقامة" تشبه المسرحية من بعض النواحي).

ثالثًا: يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، أن الدمج الهزلي يمكّن خلط نواحٍ جديّة وعملية، ذات أهمية لدارسي الحضارة من ناحيتها المادية والتأريخية. وهنا ثمة ربط واحراز من قبل المحقق يستحقان التقدير.

يوسف سدان